دولة آل عثمان

٤

السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح

خلف اباهُ السلطان مرادًا سنة ١٤٥١ مسيحية الموافقة لسنة ٨٥٥ هجرية . وهو الذي فتح القسطنطينية وكانت قد بلغت حضيض الضعف . قال جودت باشا في تاريخهِ المشهور انهُ "حدث حينئذٍ نزاع مذهبي بين الارواميين ووقع الضعف والوهن في امبراطورية الاستانة حتى انهُ لم يبقَ للامبراطور من السلطة الاَّ مجرَّد الاحتشام والرسوم والعادات البسيطة . ويروى ان وكلاءهُ منَّا بلغهم ان حضرة السلطان محمد خان الثاني بنى قلعة بوغازكسن وسدَّ عليهم خليج القسطنطينيَّة اختبطت عقولهم واضطربت افكارهم وعقدوا للمذاكرة في هذا الامر مجلسًا كبيرًا في ايا صوفيا فاخذوا يتزاحمون في اوقات الاجتماع على التقدُّم في الجلوس ولم يراعوا حقوقهم بحسب مراتبهم فادَّى بهم ذلك الاختلاف الى التضارب بالكراسي على الرؤوس . وفتحُ الاستانة وان كان ممكنًا قبل هذا الاوان نظرًا لارتباك احوال اهلها فان عوارض الزمان قد حالت دونهُ ثم لما صار الامر الى حضرة ابي الفتح محمد خان المشار اليهِ تمكَّن من حل هذه العقدة وفاز بما كان يأملهُ وذلك انهُ في سنة ٨٥٧ جهَّز عساكر جرارة ومدافع عظيمة وزحف عليها من جهة ادرنه وفتحها . فامتدت الدولة العلية بذلك الى مركزها الحقيقي واصبح حضرة الفاتح بعد ان تمَّت لهُ لوازم السلطنة بهذا الفتح جديرًا بلقب ملك الملوك . ولا يخفى ان سعادة الامة ناشئة عن اتحاد الكلمة واتفاق الرأي وكرم السجايا كما ثبت في هذه القضية فان الروم كانوا على غاية القوة المالية والمعرفة بامور السياسة الدولية حتى ان اوربا استفادت منهم لما انتشروا فيها بعد فتح القسطنطينيَّة لكن العثمانيين الذين كانوا شرذمة قليلة متيهة في ضواحي الاناطولي ظلوهم وما ذلك الاَّ لدخول الفساد على اخلاقهم وشدة الشقاق بينهم فلم تنفعهم قواهم المالية ولا معارفهم السياسية

"وبعد فتح القسطنطينيَّة احرزت الدولة العلية في مدة وجيزة اسطولاً كامل العدَّة والذخيرة واستولى حضرة الفاتح على القريم وعلى قلاع ومواطن كثيرة في اسيا واوربا وضمها الى ممالكهِ وحيث كانت الدولة العلية تراعي جانب العلماء كانوا يؤمُّونها من كل فج عميق واصبحت القسطنطينيَّة في ذلك العصر دارًا للعلوم والفنون"

هذا ما قالهُ جودت باشا في تاريخهِ عن فتح القسطنطينيَّة وعن السلطان محمد الفاتح

واكتفى به. والظاهر ان السلطان لم يهتمّ بادئ بدء بفتح القسطنطينيّة بل جدّد عهود الصلح والصداقة مع امبراطورها وغيره من اصحاب البلدان المجاورة وكان صاحب اثينا قد توفي لما تولى السلطان مراد فبعث اليها باخ انطونيو اكسيأجولي الذي كان مقيماً في بلاطه فاحتفل به الاثينيون من الروم الارثوذكس وزادوا ولاء للعثمانيين. ووجّه السلطان همّهُ الى اسيا لان صاحب قرمان كان قد شقّ عصا الطاعة فاكان من الامبراطور قسطنطين امبراطور القسطنطينيّة الاّ انهُ طلب راتباً مضاعفاً للامير أورخان الذي كان اسيرًا عندهُ فاغتاظ السلطان من ذلك وعقد الصلح مع صاحب قرمان وارضى الانكشارية بالهبات لان عقد هذا الصلح حرمهم من الغنيمة وشرع في بناء قلعة على اضيق مكان في البسفور حيث لا يزيد عرضهُ على ٥٥٠ مترًا وهو المضيق الذي عبرهُ زركسيس ملك الفرس. وهذه القلعة المعروفة عند الاتراك بقلعة بوغاز كسن وعند الروم باليوكوبيون اي قطاعة الرؤوس حصن منيع سمك جدرانهِ ٢٥ قدمًا وارتفاعها ٦٠ قدمًا ويقابلهُ على الجهة الاخرى من البسفور الحصن الذي بناهُ السلطان بايزيد واسمهُ الاناطولي حصار فصار مضيق البسفور بين حصنين منيعين حتى يتعذر وصول المدد والميرة الى القسطنطينية من جنوى والبندقية

ولما رأى الامبراطور قسطنطين انهُ لا يستطيع المقاومة انحاز الى اللاتين وعزم على اعادة الاتحاد بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية فارسل اليهِ البابا الكرديتال ايسيدور ومئتين من الجنود ورئيس الاساقفة ليوتارد. ورئيس الاساقفة هذا كتاب وصف فيهِ حصار القسطنطينية وكيفية فتحها. واحتفل باتحاد الكنيستين في الحادي عشر من شهر سنة ١٤٥٣ في كنيسة ايا صوفيا ودعي فيها للبابا وللبطريرك غريغوريوس. فاغتاظ اكليروس الروم الارثوذكس من الامبراطور واشتدّ الشجار بين الفريقين حتى قال الارشديوك لوقا نوتاراس امير البحر وقائد مدفعية الروم اننا نفضل ان نرى عمامة (السلطان) محمد في مدينتنا على ان نرى فيها تاج البابا. وكان للجنويين والبنادقة اموال واملاك كثيرة في غلطه وبيرا فساعدوا الامبراطور للدفاع عن مصالحهم وكان الجنويون قد حصنوا غلطه واقاموا فيها برجهم المشهور واتوا بسفينتين و ٧٠٠ جندي لمساعدته اما البنادقة فكانوا قد جددوا المعاهدة مع السلطان ولذلك امروا امير اسطولهم اوامر مبهمة حتى لا يؤاخذوا بنقض عهدهم اذا دارت الدائرة على الروم. واتت عشر سفن من سفن البابا لكنها لم تعمل عملاً يذكر

وزحف السلطان من ادرنة في الثالث والعشرين من شهر مارس سنة ١٤٥٣ الى ان صار على نصف ميل من القسطنطينية وكان معهُ في ما قيل ١٦٥ الفًا من الجنود ولم يكن

عند الامبراطور لمقاومة هذا الجيش الجرار سوى ٤٩٧٣ من الجنود اليونانية المسلحة و٢٠٠٠ من الغرباء من البندقة والجنويين والكريتيين والرومانيين والاسبانيين . ونصب السلطان اثني عشر مدفعاً كبيراً في الاماكن المشرفة على المدينة فجعلت تقذفها بالحجارة الكبيرة وثقل بعضها خمسة قناطير مصرية . واستيسل الامبراطور وجنوده ولكن بعض الرجال تبأوا لشعب ان الاتراك يبلغون عمود قسطنطين امام كنيسة ايا صوفيا ثم ينزل ملاك من السماء ويطردهم ويعدهم الى حدود بلاد الفرس فصدق كثيرون من الروم قولهم ولم يهتموا بالدفاع عن مدينتهم

وكانت النار اليونانية قد منعت السلطان اولاً من مهاجمة المدينة ولم يستطع ان يصل اليها بسفنه فجرّ السفن على البر ونزلها في المكان المعروف الآن بقاسم باشا وبثت جنوده المدينة ودخلتها عنوة ليلة التاسع والعشرين من شهر مايو سنة ١٤٥٣ واعملت السيف في اهلها وقتل الامبراطور مع من قتل ووجدت جثته بين جثث اعوانه وكان السلطان قد عرض عليه التسليم وامنه على حياته فابى مفضلاً الموت في سبيل الدفاع عن بلاده وقطع رأسه ووضع على قنة عمود يوستنيانوس وقيل انه ارسل الى الولايات الاسيوية ليعتبر به ولاتها . وخلع الكردينال ايسيدور ثوبه الارجواني ولبس ثياب جندي من الجنود المتسولة فاسرع الذين اسروا . ثم هرب الى المورة ومنها الى البندقية وقصّ على اهالي اوربا ما اصاب عاصمة مملكة الروم . واحتشد الالوف من السكان في كنيسة ايا صوفيا فاسروا كلهم . قال احد مؤرخي اليونان انه لو نزل ملاك من السماء حينئذٍ وخيّرهم بين اتحاد الكنيستين والوقوع في يد الاتراك لفضلوا الثاني على الاول

ووصل خبر هذا الفتح الى الديار المصرية بعد نحو ستة اشهر قال ابن اياس في حوادث ذي القعدة سنة ٨٥٧ "وفيه وصل قاصد ملك الروم محمد بن عثمان يخبر السلطان (١) بفتح القسطنطينية العظمى وقد صنع المكايد في فتحها وكان الفتح في يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الاولى من هذه السنة (٨٥٧ هـ) فلما بلغ ذلك دقّت البشائر بالقلعة ونودي في القاهرة بالزينة ثم ان السلطان عيّن برسباي امير اخور ثاني رسولاً الى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح العظيم فخرج برسباي وتوجه الى بلاد ابن عثمان" . وقال في حوادث السنة التالية "وفيه (اي في جمادى الاخرى) قدم برسباي الذي توجّه قاصداً الى محمد بن عثمان وخلع عليه" . واكتفى ابن اياس بذلك ولم يزد . وهو يلقب صاحب مصر حينئذٍ بالسلطان واما السلطان محمد الفاتح فيكتفي بتسميته محمد بن عثمان ملك الروم

(١) اي سلطان مصر وانشام الملك الاشرف ابو النصر قايتباي الجركسي الظاهري

ونقل الامير حيدر الشهابي في تاريخهِ المشهور ما خلاصتهُ " ان السلطان محمدًا الفاتح فشل في اول الامر وعزم على رفع الحصار عن القسطنطينيَّة وجمع وزراءهُ واستشارهم فاشاروا عليهِ بالاستمرار على الحصار وبعد ثلاثة ايام هجمت جنودهُ على المدينة وهدموا بعض اسوارها ودخلوها عنوة ووجدوا الملك قسطنطين قد دبس تحت الارجل من تزاحم الجنود وكان ذلك في السابع والعشرين من شهر ايار وكان ابتداء حصارها في شهر نيسان واطلقت يد الجنود للقتل والسلب والنهب ثلاثة ايام ثم امر السلطان بتأمين الباقين احياء وامر الاساقفة والقسوس ان يختاروا لهم بطريركًا جديدًا لان البطريرك الاول فريفوريوس كان قد ترك كرسيَّهُ ولجأ الى الكرسي الروماني فاختاروا الصالح الذكر جرجس شكولاريوس الذي كان قاضيًا وسمَّوهُ جنادیوس وامر السلطان فاحتفلوا بسيامتهِ كما كان يحتفل في زمن ملوك القسطنطينيَّة"

والظاهر انهُ ليس في العربيَّة تاريخ لفتح القسطنطينية كتب حين فتحها اما الاتراك فكتبوا تواريخ كثيرة في زمن محمد الفاتح استشهد بها كتبير في تاريخهِ المشهور وذكرها فون همر لكننا لم نرَها ولا رأينا ترجمتها واما الروم واليونان ففصَّلوا ذلك الشح تفصيلاً مسهبًا وقد جمع المؤرخ جبن الشهير تراريخهم وتخصَّ منها ما يملأ اربعين او خمسين صفحة من المقتطف ومما قالهُ فيها — ان الروم هم الذين احرجوا السلطان على فتح مدينتهم بحماقتهم فعوضًا عن ان يلزموا السكينة لكي يتسنى وجودهم بمثوا رسلهم وراءهم يتبعونهُ من مكان الى آخر ويطالبونهُ بزيادة الراتب المقرر للامير ارخان وكان الوزير خليل باشا مخلصًا لهم فسفَّهَ رأيهم وقال لهم "ايها الحمقى ان السلطان مرادًا الذي كان كثير التؤدة قد ترفق ونحن الآن بين يدي شاب شديد العزيمة قوي الشكيمة الفتح شيمتهُ ولا يقف شيء في طريقهِ فاشكروا ربكم اذا نجوتم من يدهِ. فان كنتم تحرجونهُ تخرجوهُ وتتهددونهُ باطلاق ارخان وجعله سلطانًا على رومانيا واستدعاء المجار من وراء الدنيوب وامم اوربا لمحاربتنا فانكم تقضون على انفسكم". اما السلطان فلم يتوعدهم بل طيَّب خاطرهم وقال لهم انهُ ينظر في طلبهم حال رجوعهِ الى ادرنه . ولما رجع امر بقطع الراتب وشرع في بناء الحصن المشار اليهِ آنفًا على خمسة اميال من القسطنطينية وجمع لبنائهِ الف بنَّاء وحاول رسل الامبراطور ان يصرفوهُ عن عزمهِ فاجابهم انهُ يبني الحصن في ارضهِ لا في ارضهم لان مملكة امبراطورهم صارت محدودة باسوار مدينتهِ ثم قال لهم ارجعوا واخبروا مولاكم اني لست مثل سلفائي وان مقاصدي لا تتوقف على مشيئتكم وانكم اذا عدتم اليَّ ثانية سلخت جلودكم

ولما عاد الرسل واخبروا الامبراطور بما سمعوا ورأوا عزم ان يشهر الحرب ويتبع تقدم

العثمانيين لكنّ رجاله صرفوه عن عزمه كأنّ ذلك يصرف السلطان عمّا قصده ومضى الشتاء والخطر محدق بالروم وهو يتعاظم يوماً فيوماً وهم نيام او متناومون

وشرع السلطان في بناء الحصن في السادس والعشرين من شهر مارس (اذار) وجعله مثلّث الجوانب وبنى ثلاثة ابراج على زواياه الثلاث وكان سمك جدرانها ثلاثين قدماً وسقفه بالرصاص وجلب حجارة الكنائس واعمدتها لبنائه . واطلق بعض فرسان الاتراك خيولهم في مزارع الروم حول القسطنطينيّة فرعت ما فيها من الزرع ووقع الشجار بين اصحابها واصحاب الزروع فهدمت المزارع وقتل اربعون من اصحابها . ورأى الامبراطور حينئذٍ ان الحرب صارت على قاب قوسين فاقفل ابواب القسطنطينيّة وكتب الى السلطان يقول اني القيت اعتمادي على الله لعلمه يلين قلبك و يصرفك عن عزمك والاّ فاني خاضع لمشيئته واحكم اليه وهو خير الحاكمين وما دمت حيًّا فاني ادافع عن شعبي واموت في الدفاع عنهم

اما السلطان فانهُ اتمّ بناء الحصن واقام فيه رقيباً يتقاضى جملاً من كل السفن الداخلة . وحاولت سفينة من سفن البندقية الدخول من غير دفع الجعل فاطلق الرقيب عليها مدفعاً اغرقها . وهذا المدفع من عمل اربان المجري سبكهُ للسلطان كما سبك غيرهُ من المدافع الكبيرة التي هدمت حصون القسطنطينيّة وسهلت فتحها . ونجا ربان السفينة وثلاثون من بحارتها في قارب نقيض عليهم وقيدوا بالسلاسل فقطعت رؤوس البحّارة وسلخ جلد الربان . وقد رأى المؤرخ دوكاس اجسادهم مطروحة للوحوش . وأخر حصار القسطنطينيّة الى الربيع التالي ولما حان الوقت استدعى السلطان وزيرهُ خليل باشا واخبرهُ بما عزم عليه . قبل انهُ استدعاه ليلاً فيرسل اليه بعد ان ودّع زوجتهُ واولادهُ واخذ معهُ الهدية المعتادة من الذهب على جاري العادة . وقدمها الى السلطان فقال لهُ السلطان ان هذه الهدية لا تكفيني وانا اطلب منك هدية اثمن واسنى اطلب منك القسطنطينيّة . فقال الوزير ان الذي سبك الجانب الاكبر من مملكة الروم لا يبخل عليك بالبقية الباقية منها فانت موفق الى ما تريد بعون الله وانا وكل عبيدك الامناء وقف على خدمتك . فقال السلطان لقد مضى الليل وجنني لم يذق الكرى فاياك وذهب الروم وفضتهم نحن اشد منهم بأساً واقوى عدةً وسنفوز عليهم بعون الله وجاه نبيه

ثم شرح المؤرخ جبن كيفية حصار القسطنطينيّة وفتحها والاعمال المنكرة التي عملت على اثر ذلك الفتح مما كرّه الينا قراءة التاريخ . وتولى السلطان محمد الفاتح وهو في الحادية والخمسين من عمره بعد ان استولى على المورة وطرابزون (وكانت امبراطورية) وتهدّد ثينا وحارب رودس واستولى على مدينة اترنتو من مدن ايطاليا